



Abū Sālim al-'Ayyāshī.- 'Atta'rīf wa 'al-'ijāz bi ba'di mā tad'ū ad-darūratu ilayhi fī tarīqi al-Hijāz, taḥqīq Ḥasan Ḥāfiẓi 'Alawī (Ar-ribāṭ: Dār 'abī Raqrāq li aṭ-ṭibā'a wa an-Nashr, 2021), 162p.

أبو سالم العياشي.- التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، تحقيق حسن حافظي علوي (الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2021)، 162 ص.

استأثرت الرحلة الحجاجية المعروفة بـ "ماء الموائد" للفقهاء

والمُتصوف والأديب أبي سالم العياشي [1679-1628م]، باهتمام عدد كبير من الباحثين المغاربة والمشاركة والأوربيين، فاهتموا بدراساتها ونشرها، بعدما صدرت طبعها الحجرية في جزئين سنة 1316هـ. أما الرسالة التي قام المؤرخ حسن حافظي علوي بتحقيقها ونشرها مؤخرا، فلم تحظ بنفس الشهرة التي حظيت بها رحلة العياشي المذكورة أعلاه، ولم تصدر ضمن المطبوعات الحجرية المغربية رغم الفوائد الكثيرة التي تتضمنها حول "مهمات الطريق واختلاف أحوالها"، وهو ما انتبه إليه سي محمد الأخضر، الأستاذ بكونيلج مولاي إدريس بفاس، لما أعارَه زميله سي صديق الفاسي مجموعا مخطوطا يشتمل على رسالة "التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز"، فشرع على الفور في ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وشارك بها في أعمال المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العالمية بشمال إفريقيا - الذي انتظمت أشغاله بمدينة الرباط ما بين 18 و20 أبريل 1938م-، ونشرت سنة 1939م بعنوان: (محطات نزول الحجاج من سجلماسة إلى مكة والمدينة).¹ وقد شدد الأستاذ الأخضر في تقديمه الموجز لهذه الرسالة إلى اشتغالها على معطيات جغرافية وإثنوغرافية وتاريخية وسيكولوجية حول المدن والقرى والمناطق، التي يعبرها الحجاج في رحلتهم إلى الحجاز في الذهاب والإياب.

ولعلَّ صغر حجم هذه الرسالة، وتفرق نُسخها ضمن مجاميع مخطوطة غير مُفهرسة بشكل جيد، هو ما حال دون تعرف قراء العربية عليها في وقت مبكر. فقد تأخر نشر نصها العربي إلى سنة 2013، حيث صدرت عن دار الكتب العلمية في بيروت، بعناية المؤرخ الجزائري عبد الله حمادي الإدريسي، الذي اعتبرها رحلة حجرية صغرى، واعتمد في تحقيقها على ثلاث نسخ مخطوطة فقط، وهو نصف عدد النسخ التي اعتمدها حسن حافظي علوي في إعادة بناء

1 Mohamed Lakhdar, "Les étapes du pèlerin de Sijilmasa à la Mecque et Médine," t. 2 (Alger: actes du congrès de fédération des sociétés savantes, 1939), 671-688.

النص. وبعد انصرام حوالي خمس سنوات على هذه الطبعة، صدر تحقيق جديد لهذه الرسالة ضمن منشورات مجلة أمل، على يد سعيد واحيحي، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق - الدار البيضاء، الذي اهتم في بحثه عن مخطوطاتها إلى ثمان نسخ، سبع منها في مكتبات عمومية بمدينة الرباط، وواحدة في الخزانة العياشية بزاوية سيدي حمزة بإقليم الرشيدية، إلا أنه لم يعتمد في تحقيقه لها سوى على خمس نسخ. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنه اعتمد على نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية التي تحمل رقم ك 43، كأصل في التحقيق - شأنه في ذلك شأن الأستاذ حسن حافظي علوي-، لأنها نُسخَت يوم الخميس 28 ربيع الأول 1068هـ/2 يناير 1658م، ومؤلفها على قيد الحياة، بخلاف بقية النسخ التي يعود تاريخ بعضها إلى فترات متأخرة أو يصعب التأريخ لها لخلوها من تاريخ النسخ. والملاحظ أن هنالك عدد من الاختلافات بين المحققين على مستوى ضبط رسم بعض الكلمات أو شكلها، فضلا عن تقديمهما لنص الرسالة بشكل مختلف.

قدّم حسن حافظي علوي لهذا الكتاب بترجمة مطولة لأبي سالم العياشي، تتبع فيها مساره العلمي منذ تلقيه تعليمه الأولي بمسقط رأسه في زاوية أيت عياش [الزاوية الحمزاوية]، على يد والده وأخيه الأكبر عبد الكريم، ورحيله إلى الزاوية الناصرية بتامگروت من أجل استكمال تكوينه، إلى أن تم ترحيله من بلده إلى فاس رفقة عائلته، وفرض الإقامة الجبرية عليه بها سنة 1083هـ/1672م بعدما رفض الاشتغال بخطة القضاء في مراکش. وقد أبدى العياشي اهتماما كبيرا بعلوم الفقه والحديث والتصوف، ولعل هذا ما حدا به إلى الرحلة صوب المشرق سنة 1649م بُغية أداء مناسك الحج ولقاء المشايخ، ثم الحج مرة ثانية سنة 1654م، قبل التوجه للمرة الثالثة والأخيرة إلى الحجاز سنة 1661م، وذلك بعدما تراجع عن مرافقة الركب السجلماسي سنة 1659م، بسبب المواجهات العنيفة بين الدلائيين والعلويين من جهة، وبين العلويين وأتراک الجزائر من جهة ثانية.

وقد أهّله رحلاته الثلاث لإسداء النصح للراغبين في أداء شعيرة الحج، ومن بينهم تلميذه أحمد بن سعيد المكيدي، قاضي فاس الجديد، الذي عقد العزم على التوجه إلى الديار المقدسة سنة 1658م، وكتب إلى شيخه العياشي يخبره بذلك، فحرر له رسالة "التعريف والإيجاز"، لتكون بمثابة دليل عملي يستعين به على أهوال السفر في رحلته الطويلة، وأكد في مقدمتها - مخاطبا تلميذه المكيدي-، أن الهدف من تحريرها هو التعريف "ببعض ما تحتاجون إليه في مهمات الطريق، واختلاف أحوالها، وما تستعين به لكل موضع، وما تتلقى به شذائدها، وتستشفي به من أدوائها، من أمور لا تنوب فيها المكاتبة عن المشافهة". أما بخصوص تاريخ الانتهاء من كتابتها، فقد أكد حسن حافظي علوي موافقته ليوم الخميس 28 ربيع الأول 1068هـ/2 يناير 1658م، انطلاقا من التاريخ الوارد في النسخة المعتمدة كأصل في التحقيق.

وتتجلى أهمية هذه الرسالة في إقبال النُساخ على نسخها، وفي نقلها بأتمها في بعض الرحلات الحجازية، كما هي الحال في رحلة أبي العباس أحمد بن محمد (فتحاً) بن داود بن يعزى التتملي الهشتوكي الجزولي لقبا الدرعي دارا (ت 1127هـ/1715م) الموسومة بـ: هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك لما لها من أهمية في تذليل الصعوبات المادية واللوجستية أثناء رحلة الحج. فما الذي يميزها يا ترى عن نصوص الرحلات الحجازية الكثيرة التي تعود إلى العصر العلوي الأول؟

يتجلى تفرد هذه الرسالة وتكمن أهميتها في خلوها إلى حد كبير من الأشعار والمراسلات الأدبية والمناظرات والمجادلات الفقهية، وتراجم أعلام الفكر والتصوف...، واعتمادها الأسلوب المباشر في إيصال المعلومة، فضلاً عن اشتغالها على مُعطيات كثيرة بخصوص عدد المراحل وأسماء المنازل، وتوطين نقط الماء ومواضع الآبار، وأماكن تزود الحُجاج بالميرة والعلف لدوابهم، والسلع الواجب حملها للمتجارة فيها، وأماكن بيع الإبل المنهكة وشراء أخرى بديلة. ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك، نُصح العياشي للمغيلدي باقتناء كميات كبيرة من الجلد الأحمر الفيلاي، بسبب إعراض سكان المناطق التي يمر منها الركب عن التعامل بالنقود أو الذهب، وتفضيلهم المقايضة عليها، وتشديده في الآن نفسه، على ضرورة بيع أحمال هذا الجلد قبل بسكرة، وشراء جلود البقر لارتفاع الطلب عليها في المجال الممتد ما بين هذه المدين الأخير ومصر، وتحديدته للأماكن المناسبة للتزود بالحاجيات الضرورية من الألبسة والأغذية، والاستعانة بالنساء لقتل الكسكس وصنع البجماط والمحمصة والبسيصة أو الزمّية في طرابلس، واقتناء القرب السودانية الجيدة استعداداً لقطع الدرب الحجازي المتسم بجفافه وحرارته المرتفعة، دون أن يغفل عن تنبيهه إلى ضرورة اتخاذ الحذر من اللصوص، والتناوب مع رفاقه على الحراسة، واقتناء الأسلحة النارية، "فإنها في الطريق هيبه وأي هيبه، فاستكثر منها جهدك [...]" فإنها نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق، "زيادة على نصحه له بالمواظبة على قراءة الأوراد والأدعية والتعويزات والتحصينات، إمعانا في الوقاية من كل خطر قد يتهدد سلامة النفس والمال.

تُقدم هذه الرسالة رغم طابعها الموجز الذي ألح إليه المؤلف في العنوان، مُعطيات بالغة الأهمية حول المجتمع والاقتصاد المغاربيين خلال القرن XVIIم، فضلاً عن عنايتها بالجانب التنظيمي لركب الحج الذي لا تهتم به المدونات الرحلية المغربية إلا لِمَا. وهو ما يُفسر إقبال عدد من المؤرخين في السنوات الأخيرة على تحقيقها.

سمير أيت أومغار

باحث في التاريخ، مراكش